

# الفلسفة الشرقية

## بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

- ١٢ -

### النفس - فلوردها - التناسخ

رأيت فيما أسلفنا من مستحدثات عهد التطور تلك النظرية الفلسفية العميقة التي تقرر أن الوجود المادي باطل ، ولكنه مشتمل في داخله على جوهر سام هو وحدة الحقيقة في كل موجود ، ورأيت كذلك أن هذه النظرية لم تقتصر على كائن في الوجود دون كائن ، فهي قد تناولت الآلهة والأناس والحيوان والنبات ، غير أن أهم ما يعنى الباحث في هذا الجوهر الحق المحتجب وراء الأستار المادية إنما هو النفس

وقد عنى خاصة المنوذين بها عناية شديدة منذ أقدم عهودهم بالتفكير ، فقررروا أنها هي الجوهر الحق في الانسان ؛ ولذلك أطلقوا عليها اسم الانسان لأنهم اعتبروا الجسم بدونها باطلاً لا يستحق أن يدل على الانسان كما يدل عليه النفس . ولا شك أن الباحث حين يتأمل في هذه النظرية للهولة الأولى بلح فيها عناصر نظرية « أفلاطون » في النفس والمادة حيث يقرر أن النفس هي وحدها النور الخالد والحق الأسمى في الانسان ، أما الجسمان المادي فانه خيال باطل لا تطلق عليه كلمة « حقيقة » إلا تجوزاً ، لحلول النفس فيه ولصوغه على نماذج المثل التي أبتأ أن عناصرها مصرية

ويرى فلاسفة الهند أن النفس جاهلة بالفعل عالمة بالقوة ، وأن الجهل والعمى صفتان متماقتتان عليها باختلاف الظروف والأحوال . ولا جرم أن المنوذين قد سبقوا « أرسطو » بمدة قرون الى نظرية جهل النفس بالفعل وعلمها بالقوة وفوزها بالملم الفعلي عن طريق الكسب والتجربة ، تلك النظرية التي ببسطها أرسطو بسطاً واضحاً حين يرد على أفلاطون القائل بأن النفس كانت عالمة بالفعل قبل أن تحل في الأجسام المادية ثم نسيت

الرجل الذي دخل علينا ونحن بضريح الشيخ الفاوري ثم أخذ موقفه بين الشميتين وما كاد يرى صباح النسوة حتى راح يهز رأسه هنأ عتيفاً بطريقة منتظمة ، ثم ينادى بأعلى صوته : الله ، الله ... وبعد برهة كان يئنوي على الأرض التواء الحية الرقطاء وتنقلص عضلات وجهه ، ويرسل صراخاً كالنياح ثم يهتف قائلاً : الله أكبر ، الله أكبر ، حتى خيل إلينا أن صخور المقبرة أوشكت أن تلتقط منه لفظ الجلالة . وكدت أفقد رشدي من هول الموقف ، وأحسست كأن حشرة الموت تنشب مخالبها في حاتي ، فأردت أن أستنجد بكل قواي غير أنني لم أستطع إلى ذلك سيلاً ، فجاهدت قدر طاقتي حتى لا أسقط عن مقدمي ، ولكن بلا جدوى أيضاً لأنني شممت كأن بي مسا من الجن ، وأن كابوساً قد جثم فوق صدري ، وأن العرق البارد يتحلب من وجهي . وأخيراً هدأت نفسي فنادرت المكان وهتفت بصديقي أدموه إلى الصلاة . ولكنه أجابني بعدم قدرته على أدائها وهو لا يزال يرجف فرطاً . فتركته ومضيت إلى القبلة ، حيث عادت إلى طمأنينتي الأولى . وبعد الصلاة رحت أفنث عن صديقي فاذا به يقف بجوار المجراب باهت اللون ، ينتظرني بفروغ صبر لتفادير هذا المكان الذي كان يرمقه بعيون مفتحة رعباً

وتأوه صديقي ونحن نتأدر باب المنارة ، ثم أفضى إلى بأنه من الصعب أن يشمر بأقل ميل نحو الشرق ، حيث الأضرحة والمعابد القديمة البالية والمعدات الرذولة ، ولكن أمه — تلك السيدة الوقور الطيبة الأخلاق — طالما شكت إلى إيمانها المزعزع واتجاهه نحو الغرب ، وكانت تصلي من أجله عسى الله أن يرشده إلى الطريق السوي ويفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

وانطلقنا إلى حديقة المنارة وما كدنا نستقبل الهواء الطلق حتى وقع نظرنا على طائفة من السأمحات الأصبكيات وهن يصغفن باهتمام إلى شروح بمض التراجم والأدلاء ، فهتفت بصديقي قائلاً :

— هذا هو الغرب الذي تتمشقه

عبد الكريم هريمانوس

(تمت)

إن هذا الملاك قد أحرق على هذه الصخرة مرات كثيرة فافعلوا ما تريدون فإنه إنما قصد إعلامكم وقد قميت حاجته»

وقال باسديو : فمن يؤمل الخلاص ويجهد في رفض الدنيا ثم لا يطاوعه قلبه على المبتنى أنه يثاب على عمله في مجامع الثائين ، ولا يتال ما أراد من أجل نقصانه ، ولكنه يعود إلى الدنيا فيؤهل لقلب من جنس مخصوص بالزهادة ويوقفه إلى الإلهام القدسي في القالب الآخر بالتدرج إلى ما كان أراده في القالب الأول ، ويأخذ قلبه في مطاوعته ولا يزال يتصني في القوالب إلى أن ينال الخلاص على توالي التوالد<sup>(١)</sup>

وقال في كتاب «سانك» : أما من استحق الاعتلاء والثواب فإنه يصير كأحد الملائكة مخالطاً للجامع الروحية غير محجوب عن التصرف في السموات والكون مع أهلها أو كأحد أجناس الروانيين الثمانية . وأما من استحق السفول بالأوزار والآثام ، فإنه يصير حيواناً أو نباتاً أو يتردد إلى أن يستحق ثواباً فينبجو من الشدة أو يعقل ذاته فيخلى حركيه ويتخلص<sup>(٢)</sup>

قال صاحب كتاب «باتنجل» : أفراد الفكرة في وحدانية الله يشغل المرء بالشعور بشيء غير ما اشتغل به ، ومن أراد الله أراد الخير لكافة الخلق من غير استثناء واحد بسبب ، ومن اشتغل بنفسه عما سواها لم يصنع لها نفساً مجذوباً ولا مرسلأ . ومن بلغ هذه الغاية غلبت قوته النفسية على قوته البدنية . ففتح الانتدار على ثمانية أشياء يحصلها بفتح الاستثناء ، فحال أن يستغنى أحد عما يجزئه واحد . تلك الثمانية هي : التمكن من تلطيف البدن حتى يخفى عن الأعين ؛ والثاني التمكن من تخفيفه حتى يستوى عنده وطء الشوك والوحل والتراب ؛ والثالث التمكن من تعظيمه حتى يراه في صورة هائلة عجيبة ؛ والرابع التمكن من الارادات ؛ والخامس التمكن من علم ما يروم ؛ والسادس التمكن من التروؤس على أية فرقة طلب ؛ والسابع خضوع المرء وسين وطاعتهم ؛ والثامن انطواء المسافات بينه وبين المقاصد الشاسعة<sup>(٣)</sup>

### تقاير البراهمة

كتب كثير من علماء الفرنجة المحدثين المشتغلين بتاريخ

(١) انظر صفحة ٢٥ و ٢٦ من كتاب البيروني

(٢) انظر صفحة ٣٢ من كتاب البيروني

(٣) انظر صفحة ٣٤ من الكتاب المذكور

تلك المعارف بمد حلولها في السادة الكثيفة ، وهي الآن لا تتعلم شيئاً جديداً ، وإنما تذكر ما كانت قد تعلمته في الماضي ثم نسيتها

والنفس عند الهود خالدة لا يمتورها الفناء ، لأنها هي كل ما في الانسان من حقيقة كما أسلفنا ، ولهذا فهم لا يمترون الموت أكثر من تغيير ثياب النفس وماويها ، إذ أنها هي لا تتعرض بالموت لأي شيء إلا انتقالها من ماوي الى ماوي بما يسمونه التناسخ أو التقمص . وقد أفاضت الكتب الهندية دينية وفلسفية في هذه العقيدة أو النظرية إضافة جعلتها كأنها وحى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهالك شيئاً مما نقله لنا البيروني خاصة بعقيدة خلود النفس وتقمصها :

قال «باسديو» لـ «أرجن» يحرضه على القتال وهما بين الصفيين : « إن كنت بالقضاء السابق مؤمناً فاعلم أنهم ليسوا ولا نحن مما يموت ولا ذاهبين ذهاباً لا رجوع معه ، فان الأرواح غير مائة ولا متغيرة ، وإنما تتردد في الأبدان على تمايز الانسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة التي عقبها موت البدن ثم المود . وقال له : كيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود لا عن ولادة . ولا إلى تاف وعدم ، بل هي ثابتة قائمة لا سيف يقطعها ، ولا نار تحرقها ، ولا ماء يفسدها ، ولا ريح تبيسها ، لكنها تنتقل عن بدنها إذا عتق نحو آخر ليس كذلك كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق . فاغرك لنفس لا تبيد ، ولو كانت بائدة فأحرى ألا تتم لمفقود لا يوجد ولا يعود . فان كنت تلمح البدن دونها وبجزع لفساده فسكل مولود ميت ، وكل ميت حائد ، وليس لك من كلا الأمرين شيء ، إنما هما إلى الله الذي منه جميع الأمور وإليه تعير . ولما قال له «أرجن» في خلال كلامه : « كيف حاربت برام في كذا وهو متقدم للعالم سابق للبشر ، وأنت الآن فيما بيننا منهم معلوم الميلاد والسن ؟ » . أجابه قال : « أما قدم العهد فقد عني وإياك معه ، فكم مرة حيننا حقياً قد عرفت أوقاتها وخفيت عليك ، وكلمت الهبيء للاصلاح لبست بدنأ ، إذ لا وجه للكون مع الناس إلا بالتأنس » . وحكى عن ملك أنسيت اسمه أنه رسم لتومه أن يحرقوا جثته بعد موته في موضع لم يدفن فيه ميت قط ، وأنهم طلبوا موضعاً لذلك فأهياهم حتى وجدوا صحرة من ماء البحر نائثة فظنوا أنهم ظفروا بالثبية . فقال لهم باسديو :

لعمل القربان؛ فالنار عندهم معظمة وبالأنوار مقترنة، وكذلك عند سائر الأمم فقد كانوا يرون تقبل القربان ينزل النار عليه ولم ينهم عنها عبادة أصنام أو كواكب أو بقر وحير أو صور

وأما القسم الثاني فهو من السنة الخامسة والمشرين إلى الخمسين، وفي «بشن بران» بدل هذه الخمسين سبعون، وفيه يأذن له الأستاذ في التأهل فيتزوج ويقوم «الكذخداهية»، ويقصد النسل، على ألا يبطأ امرأته في الشهر أكثر من مرة عقب تطهر المرأة من الحيض، ولا يجوز له أن يتزوج بأمرأة قد جازز سنها اثنتي عشرة سنة، ويكون معاشه إما من تعليم «البراهمة وكشتر» وما يصل إليه منه فعلى وجه الأكرام لا على وجه الأجرة، وإما من هدية تهدي إليه بسبب ما يعمل لغيره من قرايين النار، وإما بدؤال من الملوك والكبار من غير إلحاح منه في الطلب أو كراهة من المعطى فلا يزال يكون في دور هؤلاء (برهمن) يقيم فيها أمور الدين وأعمال الخير، ويلقب: «برهيت»، وإما من شيء يجتنيه من الشجر أو يلتقطه من الأرض، ويجوز أن يضرب يده في التجارة بالثياب وبالنفول، وإن لم يتولها وأنجر له «بيش» كان أفضل، لأن التجارة في الأصل محظورة بسبب ما يداخلها من الغش والكذب، وإنما رخص فيها للضرورة، إذ لا بد منها، وليس يلزم البرهمن للملوك ما يلزم غيره لهم من الضرائب والوظائف. فأما النتائج بالدواب والبقر والأصباغ والافتقار بالربا فانه محرم عليه، وصبغ النيل من بين الأصباغ نجس، وإذا مس جسده وجب عليه الاغتسال ولا يزال يقاس ويقرأ على النار ما هو مرسوم لها

وأما القسم الثالث، فهو من السنة الخمسين إلى الخامسة والسبعين، وفي «بشن» بدل الخمسة والسبعين تسعون، وفي هذا القسم يتزهد ويخرج من الكذخداهية ويسلمها والزوجة إلى أولاده إن لم تصحبه إلى الأحجار، ويستمر خارج العمران على السيرة التي سارها في القسم الأول، ولا يستكن بسقف ولا يلبس إلا ما يوارى سواده من لحاء الشجر، ولا ينام إلا على الأرض بنير وطاء، ولا يتفدى إلا بالثمار والنبات وأصوله، ويطول الشعر ولا يتدهن

وأما القسم الرابع فهو إلى آخر العمر يلبس فيه لباساً أحمر وبأخذ بيده قضيباً ويقبل على الفكرة وتجريد القلب من

الفلسفة حول تقاليد البراهمة وطقوسهم الدينية، فوهمت بأن أخلص لك هنا ترجمة ما كتبه من هذه التقاليد على نحو ما فعلت في الطقوس المصرية، ولكنني وجدت ما كتبه أولئك العلماء ليس إلا هيكلًا عظيمًا إلى جانب ما نقله أبو الريحان البيروني عن هذه التقاليد، فلم يسمي إلا المدول عن الناقص إلى الكامل أو القريب من الكمال. وكنت أحب أن أخلص هذا النص في عبارات من عندي لكي لا أكثر من النقل عن الغير، ولكن ضرورة الاسطلاحات الفنية من جهة وخلق كلام البيروني من الحشو في هذه النقطة من جهة أخرى قد ألجأتني إلى الاينيان بالنص لتحقيق الفائدة المرجوة. وهالك ما قاله البيروني عن هذه التقاليد:

عمر «البرهمن» بعد مضي سبع سنين منه منقسم لأربعة أقسام: فأول القسم الأول هو السنة الثامنة يجتمع إليه البراهمة لتثنيته وتعريفه الواجبات عليه وتوصيته بالتراسا واعتناقها مادام حياً ثم يشدون وسطه بزمار ويقلدونه زوجاً من «جنجوى» وهو خيط مفتول من تسع قوى، وفرد ثالث معمول من ثوب يأخذه من عاتقه الأيسر إلى جانبه الأيمن ويمطى قضيباً يحسكه وخاتم حشيشة يسمى «دربهي» يتختم به في البنصر اليميني، ويسمى هذا الخاتم: «بيتر» والترض فيه التيمن والبركة في عطاياء من تلك البد، والتشديد فيه دون التشديد في أمر «جنجوى» فإن جنجوى مما لا يفارقه ألبنة، فإن وضعه حتى أكل أو قضى حاجته خالياً عنه، كان بذلك مذنباً لا يحصه منه غير الكفارة بصوم أو صدقة. وقد دخل في القسم الأول إلى السنة الخامسة والمشرين من سنه. ووجدت ذلك في «بشن بران» إلى السنة الثامنة والأربعين. والذي يجب عليه فيها هو أن يتزهد ويحمل الأرض وطاءه ويقبل على تعلم «بيد» وتقديره وعلم الكلام والشريعة من أستاذ يخدمه آفأه ليله ونهاره، ويفتسل كل يوم ثلاث مرات، ويقوم قربان النار في طرفي النهار، ويسجد لأستاذه بمد القربان، ويصوم يوماً ويفطر يوماً مع الامتناع عن اللحم أصلاً، ويكون مقامه في دار الأستاذ ويخرج منها الاسؤال والكدية من خمسة بيوت فقط كل يوم مرة عند الظهيرة أو المساء، فما وجد من صدقة وضعه بين يدي أستاذه، ليتخير منه ما يريد ثم بأذن له في الباقي فيتقوت بما فضل منه ويحمل إلى النار حطبها من شجرتي: «بلاس» و«دوب»

من صور الشارع :

## العدالة

للأستاذ أجمد الطرابلسي

اللَّيْلُ دَاجِرٌ وَأَعَاصِيرُهُ  
وَالْبَرْقُ فِي آفَاقِهِ لَاهِبٌ  
وَالْمَطَرُ الدَّفَاقُ فِي لَحْنِهِ  
يَصَافِحُ النَّهْرَ فَعَمَلُو لَهُ  
وَالشَّارِعُ الجَهْمُ مَصَابِيحُهُ  
قَرَمَ مِنَ النَّاسِ ، فَلَا سَيِّدٌ  
إِلَّا عَرَايِيدُ هُنَا أَوْ هُنَا  
يَبْعُونَ مَنَجِيٍّ مِنْ مِلَّتِ الحَيَا  
وَنَامَ . . . . . إِلَّا مَرَقَصًا فَاجِرًا  
نَهَارُهُ اللَّيْلُ ، وَسَهَارُهُ  
تَمَرِقُ الدَّجِيَّةَ أَنْوَارُهُ  
وَتَطْرَبُ الشَّارِعَ أَضَامُهُ  
دَخَلَتْه . . . . . يَا حَسَنَهُ مَنْظَرًا !  
مِنْ كُلِّ خَوْدٍ خَلَقَتْ فَتْنَةً  
وَأَهْرَجَ فِي عَنفَوَانِ الصَّبَا  
وَالنَّاسُ فِي رَقِصٍ وَفِي نَشْوَةٍ  
مَا مِنْهُمْ إِلَّا فَتَى عَابَثٌ  
كَانَتْهُمْ فِي فَرَحٍ دَائِمٍ

\*\*\*

يَا شَاكِيَا أَوْصَابَ هَذِي الدُّنَا  
أَنْدَعِي البُؤْسَ وَتَشْكُو الْوَرَى  
أَلَيْسَ فَوْقَ الْأَرْضِ غَيْرُ الْأَسَى  
هَذِي الْأَغَارِيدُ وَهَذَا الْهَوَى  
وَهَذِهِ الْأَفْدَاخُ فَوَارَةٌ  
أَلَيْسَ فِيهَا مَا يَبْلُغُ الصَّدَى  
لَا زَلَّتْ إِلَنًا لِلصَّنَى وَالجُودِ  
وَرَهْنُ كَفَيْكَ الْمَنَى وَالشُّعُودِ  
أَمَا تَرَى عَيْنَاكَ غَيْرَ الْهَرُودِ  
وَذَلِكَ الْحَسَنُ وَتِلْكَ الْقُدُودِ  
وَالدُّكُ وَالسَّحَرُ وَخَفَقُ التُّهُودِ  
وَيَنْفِرُ الْقَلْبَ الْمَعْنَى الْعَمِيدِ

\*\*\*

الصدقات والمداوات ، ورفض الشهوة والحرص والغضب ، ولا يصاحب أحداً ألبنة ، فان قصد موضعاً ذا فضل طلباً للثواب لم يقيم في طريقه في قرية أكثر من يوم ، وفي بلد أكثر من خمسة أيام ، وإن دفع أحد إليه شيئاً لم يترك منه للغد بقية ، ولم يكن له غير الذؤوب على شرائط الطريق المؤدى إلى الخلاص والوصول إلى « موكش » الذي لا رجوع فيه إلى الدنيا

وأما ما يلزمه في جميع عمره بالمعوم فهو من أعمال البر وإعطاء الصدقة وأخذها ، فان ما يملأ البراهمة راجع إلى الآباء ودوام القراءة وعمل القرابين والقيام على نار يوقدها ويقرب لها ويحفظها ويحفظها من الانطفاء ليحرق بها بعد موته ، واسمها « هوم » ، والاعتسال كل يوم ثلاث مرات في سبند الطلوع وهو الفجر ، وفي سبند الغروب وهو الشفق ، وفي نصف النهار بينهما ، أما بالفداء فن أجل نوم الليل واسترخاء المناقذ فيه فيكون طهرًا من كائن النجاسة واستعداداً للصلاة ، والصلاة هي تسبيح وتعجيد وسجدة برسمهم على الإبهامين من الراحتين للمتصقين نحو الشمس فانها القبلة أينما كانت خلا الجنوب ، فليس يعمل شيء من أعمال الخير نحو هذه الجهة ، ولا يتقدم إليها إلا في كل شيء ردى . وأما وقت زوال الشمس عن نصف النهار فانه مرشح لاكتساب الأجر ، فيجب أن يكون فيه ظاهراً ، والمساء وقت المشاء والصلاة ، ويجوز أن يفعاها فيه من غير اغتسال ، فليس أمر الاغتسال الثالث مثل الأول والثاني في التأكد ، وإنما الاغتسال الواجب عليه بالليل وفي أوقات الكسوفات بسبب إقامة شرائطها وقرابينها . وتتدى البرهمن في جميع عمره في اليوم مرتين عند الظهيرة والعتمة ، فاذا أراد الطعام ابتداء باقرار الصدقة منه لنفر أو نفرين وخاصة للبراهمة التوحشين الذين يجيئون وقت العصر للسؤال ، فان التعافل عن إطعامهم إثم عظيم ، ثم للبهائم والطيور والنار ويسبح على الباقي وبأسكته ، وما فضل منه فيضه خارج الدار ولا يقرب منه إذ لا يحمل له ، وإنما هو لمن سنج وانفق من محتاج إليه ، سواء كان إنساناً أو طائراً أو كلباً أو غيره ، ويجب أن تكون آنية مائه على حدة وإلا كسرت ، وكذلك آلات طعامه . وقد رأيت من البراهمة من جواز مؤاكلة أقرابه في قصعة واحدة وأنكر ذلك سائرهم<sup>(١)</sup>

( يتبع )

محمد غنوي

(١) انظر صفحات ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ من كتاب البيروني